

الصوت ودلالاته الوظيفية في شعر عز الدين ميهوبي؛ قصيدة (شيء من سير الطفل المشاغب) أنموذجا

أ. محمد عبد اللاوي؛ جامعة الجيلاي
اليابس؛ سيدي بلعباس

تمهيد:

حينما أردت الكتابة عن الخطاب الشعري في ديوان (عولمة الحب عولمة النار) للشاعر الجزائري عز الدين ميهوبي، ترددت بين العكوف على ما كتب في الديوان كله أم اختيار قصيدة معينة من قصائد الديوان؟ فاستوقفتني قصيدة (شيء من سير الطفل المشاغب) لأنها تحمل الهم العربي في زمن أصبحت الرؤيا الإبداعية مرهونة بالأحداث، والشاعر واحد ممن حظيت قضية فلسطين ومأساتها بنصيب أوفر من اهتمامه، فقد أرهص بمأساة فلسطين في شعره إذ خصها بقصائد عديدة بدءا بديوانه (في البدء كان أوراس) الذي يعدّ باكورة أعماله الشعرية. وقد قام البحث في ميدانه الاجرائي بدراسة هذه القصيدة دراسة صوتية بوصف الصوت أصغر وحدة في التركيب، فضلا عن ذلك فللصوت قيمة سمعية في اللغة ترجع طبيعته في التنغيم فتثير فينا انتباها عجيبا¹.

1-أهمية الصوت في الخطاب الشعري:

يعد الصوت ((أصغر الأجزاء في التيار المسموع))²، وهو هو المكون الرئيس للغة، تنتظم عن طريق اتحاده مع الأصوات الأخرى ألفاظ اللغة وعباراتها، لأن الصوت ((عملية حركية يقوم بها الجهاز النطقي وتصحبها آثار سمعية معينة تأتي من تحريك الهواء فيما بين مصدر إرسال الصوت وهو الجهاز النطقي ومركز

استقباله وهو الأذن))³، فضلا عن ذلك فان للصوت قدرة إيحائية وتجريدية بما يكونه في نفس المتلقي من صور ورؤى يهتز لها السمع، وتؤكد على مشاركة الصوت في تعزيز العملية الشعرية⁴. ولذلك يمكن القول إن البنية الإيقاعية والصوتية هي أحد أبرز ملامح الخطاب الشعري المجسد لعواطف الذات المبدعة والدال عليها. وهناك علاقة وثيقة بين الصوت/ الفونيم ودلالته المعنوية حسب الدراسات الأسلوبية الحديثة، فكل صوت من أصوات اللغة له مدلول خاص يميزه عن غيره، وكذلك الحال بين اللفظ ومدلوله، ولهذا ((اقتضت الموضوعية العلمية لإدراك العلاقة بين اللفظ ومدلوله والبحث في الجانب المحسوس من اللغة هو الصوت بوصفه وسيط الدلالة في عملية التوصيل والإبلاغ والقناة الحاملة للمعنى))⁵. فضلا عن ذلك فان الكلمة صورة صوتية وتصور ذهني قطب الصوت وقطب الدلالة، والشعر بوصفه أداة الاتصال والإفهام والإمتاع بين المبدع والمتلقي يمثل الحقل الخصب الذي يوظف فيه الشاعر أصوات / فونيمات اللغة ودلالاتها وما تحمله من معان متعددة وما تمتلكه من مساحات صوتية ومسافات توافقية تلعب دورا فاعلا في إثراء شعرية السياق، فضلا عن تنويعها الموسيقي وتشكيلها الصوتي والنغمي، فتحقق قدرا كبيرا من التوافق بين الدلالة والصوت يقود إلى إبراز القيمة الجمالية للنص.

ولعلنا نتفق مع من يرى أن رمزية الأصوات / الدلالة الصوتية أو القيمة التعبيرية لها تأتي بوجودها في كلمة والكلمة في سياق، إذ لا قيمة للصوت خارج السياق.

2- القيمة التعبيرية للصوت ودلالته الوظيفية:

(شئ من سيرة الطفل المشاغب) قصيدة حرة منظومة بإيقاع الوافر، والوافر من البحور ذات الإيقاع السريع، يمتاز بتفعيلاته المتساوية وبعذوبة موسيقية

ترهق الإحساس، قصيدة طويلة نظمها الشاعر بمناسبة استشهاد الطفل محمد الدرّه ابن الأثني عشر ربيعاً في 30 ديسمبر 2000م، رمز انتفاضة الأقصى، اغتالته الأيدي الصهيونية الغادرة أمام أعين العالم، وقد حاول أبوه جمال الدرّه حمايته فأصابته رصاصات ثمانية أدت به إلى الشلل التام.

ظهر البناء الصوتي في قصيدة (شئ من سيرة الطفل المشاغب) ذا قيمة رمزية وإيحائية تعبيرية تعمل على إثراء الأثر الجمالي لموسيقى النص الشعري، وقيمة صوتية ذات دلالة نفسية ومعنوية يؤديها الصوت المسموع في افهامية المعنى وإيصاله، يقول عز الدين مهبوبي:

أبي خذني غدا للسوق..

إن غدا لنا راحة

وإني أعشق الحلوى

وليس ما يكفي من الألعاب

في الساحة

وليس لدى كراس الأناشيد..

وليس لديك قداحه!

وأمي تبتغي شالا ومراة..

وتفاحه

بدأ الشاعر قصيدته بصوت الهمزة (أبي) ثم توالى هذا الصوت (إن غدا لنا راحة، إني أعشق الحلوى، الألعاب، الأناشيد، أُمي تبتغي شالا...)، هذا الصوت المهموس الانفجاري الذي يتناسب مع عمق الحدث والحزن المنسجم مع الطبيعة الصوتية للهمزة الانفجارية، فكما توحى الهمزة بالإنفجار والانتشار، يوحى الحدث المجسد لعواطف المبدع بالإنفجار والتحسر واللوعة من الحزن والألم، فمحمد

جمال الدرّه واحد من الأطفال الفلسطينيين المحرومين، أحلامه معلقة ، يفتقد إلى أبسط الأشياء، إلى حلوى ولعبة وكراس، كما تفتقد أمه أيضا إلى شال تغطي به منكبيها ومراة ترى فيها وجهها... ، فقد عبر صوت الهمزة عن حالة الاختناق التي يعيشها المبدع وهو يقاسي آهات الحرمان والفقر المدقع الذي يعانيه محمد الدرّه وعائلته إذ((تخنقه الآهات في صدره التي جسدتها الهمزة))⁶ بوصفها من الأصوات الشديدة التي تمنع تهادي الصوت وجريانه⁷ وتراكمها الصوتي في بني الخطاب في بنية الخطاب الشعري يوحى بالجهد النطقي المضاعف الذي ينغلق فيه المزمار تمام الإنغلاق مع الوترين الصوتيين، وبذلك استطاعت الهمزة التعبير عن جو القصيدة العام والكشف عن معاناة مبدعها في تعلق كل من الابن وأمه بالأب الفقير المعدم:

- سنذهب غدا للسوق

نم..عيناك محمّرّة

.....

ونام محمد الدرّه

ولم يحلم بكراس الأناشيد

ولا بالشال والمرآة والحلوى

ولا تفاحة العيد

-كفي يا ابني..

قد أتعبتني يا ابني..

وتعرف أنني عاطلٌ

رغيف من عجين المرّ

يطلع في يدي اليمنى

وخلف الباب سَفّاح

ومستوطنة تبني

فحلمك يا بني باطل

فقد اجتمع صوت الحاء المهموس الرخو الذي يصدر حفيفا عند النطق به (محمرة، محمد، يحلم، الحلوى، سفّاح، فحلمك...) مع شدة وجهر النون والباء (نذهب، بكراس، بالشال، ابني، اتعبيتني، الباب، تبني، باطل...)، وقد دلت الدراسات الأسلوبية الحديثة على أن تواتر الحاء في النص الإبداعي متصل بالحالة النفسية للشاعر فرحا أو حزنا والغالب أنه يدل على الندب⁸. قد أضفى صت الحاء على النص الشعري دفقا صوتيا منسجما مع حالة الأسى التي يحس بها الشاعر، فحلم الطفل محمد الدرّه يحوله الصهاينة السّفّاحون إلى سراب:

واني أعشق الحلوى

وليس لي كراس الأناشيد

كفى يا ابني

وخلف الباب سَفّاح

وحلمك يا بني باطل

وقد اتجه الشاعر في خطابه نحو أسلوب قد يكون جديدا في الشعر العربي، وهو الحوار، إذ جعل القصيدة مكونة بين متحاورين هما: الابن والأب، أحدهما حالم حزين والآخر يريد أن يخفف عليه الحزن والألم من خلال دعوته إلى الخلود للنوم، وبعد أن امتص النوم ألمه، كاشف ابنه وأقنعه من خلال حوار شعري منسق هادف، فقد استطاع أن يرد على كل من به حزن و ألم أن الاحتلال الصهيوني مدعوما بالمجتمع الدولي هو سبب معاناة الشعب الفلسطيني:

فحلمك يا بني باطل

وتعلم أنني المقتول

في أرضي..

من القاتل؟

أليس العالم المغمور يا ولدي هو القاتل؟

إن أسلوب الحوار يجعل القصيدة أكثر وضوحا وفهما، وأسرع في توصيل المقصد، كما يختصر على المتلقي المسافات لتحقيق الجمل والتراكيب مع بعضها، فهو كما يسميه البلاغيون المساواة، بالإضافة إلى أنه أكثر جذبا وتأثيرا. ويبقى الأثر ملازما للشاعر وهو يجسد تجربته الشعورية الباكية لوالد محمد الدرّة الذي يتجرع مرارة الوحدة من جهة ومرارة النفي من جهة أخرى:

وأبقى واقفا وحدي..

وليس معي سوى حجري

سوى روجي التي انشطرت..

إلى وطنين في المنفى..

ومئذنتين في حيفا

وليس معي سوى سفري

وأنت وغابة الزيتون..

فجهر (النون، والميم) مع تفشي السين وهمس الحاء دلت على الحزن الملازم للشاعر، فالحاء حرف مهموس منفتح اجتمع مع جهر النون، إذ أسهمت هذه التراكيمات الصوتية مجتمعة على تصوير الحزن الذي لا ينتهي، فاجتماع الأصوات المهموسة والمجهورة دلالة على تصوير حزن الشاعر وألمه.

وتأتي ساعة الاعتداء ليكشف اليهود الصهاينة عن طبيعتهم:

- أبتاه مرت ساعتان..متى نعود لبيتنا؟

- صوت الرصاص من الجنوب
من الشمال
من الجهات الأربعة
- أبي انظر هناك جنودهم..
- هيا اقترب مني.
- هم يطلقون النار نحوي..
- لا تخف..إني معك
- مهلا بني..
- إني أنزف من كل الجهات
- يا وحوش
- ..أوقفوا النار فإن الطفل قد مات
- لم أمت يا أبي ما زلت حيا يا أبي..
- أبي دعهم فلن يجدي صوت رصاص البناء
في فلسطين يا أبي..
- ولد الأطفال – طبعاً – ليكونوا شهداء

الملاحظ هنا وجود (التاء، والباء) بكثافة وهما حرفان مجهوران شديدان، منحا النص جوا موسيقيا صاخبا، يجسد هول المشهد، فرصاص العدو يحيط بالطفل محمد الدر و أبيه من كل جانب، والشوارع مسدودة بالمتاريس، تصوّب نحوهما الأسلحة وهما يتزفان دما، إنها طبيعة اليهود هواة القتل والتعذيب...مع صوت الراء وهو حرف يدل على التحرك والتكرار والترجيع وعلى الفزع والخوف⁹، فالراء ذو طبيعة تكرارية عبر عن مختلف العواطف والأفكار، كما تكررت كلمة (أبي)

ستّ مرات، وكلمة (الرصاص) بمرادفها أربع مرات، ليجد الطفل محمد الدرّه نفسه بين نار العدو وعطف أبيه، ولا طرف ثالثا يحمي به. يعاتب الطفل محمد الدرّه ذاته، وتستيقظ فيه روح البطولة والاستشهاد، إنه رمز للشجاعة والفداء، إنه ملح الأرض:

- يا أبي لا تنزعج مني
فإني عاتب عني
وإني محمد الدّرّه
دمي للتربة الحرة
محمد يا أبي طفل
فلسطينية عيناه
قدسية عيناه
أنا طفل لمجد الأرض
في أرض العبايد
أبي..
(طخ..طخ..)

مات الولد.. مات الولد

إن من يحمل همّ فلسطين لن يسمح للحزن أن يتحول في وجدانه إلى يأس وقتام، فهذا الحزن الذي يلفّ الشاعر ويلفّ وطنه الكبير، لم يمنعه يوما من التفاؤل بغد أفضل، ولأننا أصحاب حق وقضية، فهذه بشارات النّصر في فلسطين:

مات الولد.. مات الولد
طلعت من الدم وردتان
ردة طلعت بلد
مات الولد.. عاش البلد

خاتمة:

هذه بعض المقاطع من قصيدة (شئ من سيرة الطفل المشاغب)، التزم فيها الشاعر بالقافية المردوفة بحروف المد (الياء، الألف، المقصورة، والألف الممدودة)، موظفا ما تمثله هذه الحركات الطويلة من حمل للمشاعر الممتدة والأحاسيس العميقة، فجاءت قوافيها (وحدي، حجري، المنفى، حيفا، سفري، اثري، مطري...) على التوالي بقافية موصولة تارة بالكسرة الطويلة وتارة أخرى بالفتحة الطويلة محققا إيقاعا موسيقيا ومعنويا يتناسب والمشاعر الرقيقة المفعمة بالألم والأسى، وتزداد أهمية هذه المنطقة الإيقاعية بما يدعم الموسيقى الخارجية (وزن وقافية) من موسيقى داخلية يشكل التكرار أحد عناصرها، مما يدل على معاناة الأب المضاعفة، فجيعة بوطنه فلسطين وفجيعة بوحدته رفقة ولده، يختبئان بواقيات من الإسمنت ورصاص الصهاينة يلاحقهما، وليس أمامها منجاة، إن هما عاشا سوى سلاح الأمل بالنصر سيمطريوما على أرض فلسطين. وبعد دراسة الفونيم الصوتي ودلالته الوظيفية في شعر عز الدين ميهوبي من خلال قصيدة (شئ من سيرة الطفل المشاغب)، هذه بعض الاستنتاجات:

- 1- إن عاطفة الشاعر عملت على تلوين قصيدته برموز صوتية دالة على معاني الحزن والألم.
- 2- إمكانية قراءة لسانية من منظور النقد الصوتي لتحديد المعايير الجمالية والإدراكية فيها وصلتها بالصوت / الفونيم اللغوي وأدائه الوظيفي المجسد لأبعاد التجربة الشعورية.
- 3- إن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وإن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع مخارج الصوت وترجيحاته المختلفة.

4- الصوت الشعري / اللغوي واحد من أهم عناصر الإيحاء والإبداع والخلق في نتاج النص الأدبي الشعري.

الهوامش:

- ¹ الألفاظ الكتابية: عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، اعتنى بطبعه وتصحيحه ، الأب لويس اليسوعي ، د.ت.
- ² البناء الصوتي في البيان القرآني: د. محمد حسن شرشر ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة، ط1/ 1408 هـ / 1988 م
- ³ البيان والتبيين: الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر، (د.ت).
- ⁴ تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة، علق عليه إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2002م.
- ⁵ التحليل في ضوء علم الدلالة: احمد نصيف الجنابي ، (بحث) مجلة الأقلام ، العدد/ 12، سنة 2، 1985 م .
- ⁶ خصائص الاسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، 1981م.
- ⁷ دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 2004م.
- ⁸ ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، الكويت، 2004م.
- ⁹ توترات الإبداع الشعري، حبيب مونسي، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2001.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- عولمة الحب عولمة النار، عز الدين ميهوبي، دار هومة، الجزائر، 2002.
- 2- الألفاظ الكتابية: عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، اعتنى بطبعه وتصحيحه ، الأب لويس اليسوعي، د.ت.

- 3- البناء الصوتي في البيان القرآني: د. محمد حسن شرشر، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط1/ 1408 هـ / 1988 م.
- 4- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ت).
- 5- تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة، علق عليه إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2002 م.
- 6- التحليل في ضوء علم الدلالة: احمد نصيف الجنابي، (بحث) مجلة الأقلام، العدد/ 12، سنة 2، 1985 م.
- 7- توترات الإبداع الشعري، حبيب مونسي، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2001.
- 8- خصائص الاسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، 1981 م.
- 9- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 2004 م.
- ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، الكويت، 2004 م.